# (١٨)

# حديث الوحي

يقول الله تعالى في سورة البقرة :

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة:١٩٦) .

يقول الإمام الطبري : « وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية نزلت عليه بسبب كعب بن عجرة ، إذ شكا كثرة أذًى برأسه من صئبانه ، وذلك عام الحديبية »[١].

(١) أبو جعفر بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ط شاكر، جـ٤ ص ٥٨.

وقد ساق الطبري حديث كعب بن عجرة من سبعة وعشرين طريقًا ـ بعضها في الصحيحين والمسند وكتب السنن ـ في أثناء تفسيره لهذه الآية ، وبوجه خاص لقوله تعالى فيها ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة:١٩٦) .

وقد فسر العلماء أذى الرأس بالقمل وغيره ـ كالذي أصاب كعب بن عجرة ـ وبالصداع ونحوه ، وفسروا المرض بكل ما يحتاج المريض لعلاجه منه إلى حلق الرأس ، أو التداوي بدواء فيه الطيب ، وبالقروح والعلل العارضة للأبدان [١] .

فهذه هي الآية الأولى التي أنزلت على رسول الله ﷺ بالحديبية. ومع ما ذكرناه من دلالة هذه الآية على يسر الإسلام ومنهج تشريعه في التخفيف عن الناس[٢] ؛ فإن فيها دلالة لا يخطئها الفقيه على مكانة السنة في التشريع. ذلك أن القرآن الكريم نزل يقرر الفدية ، ويحدد خصالها وأنه صيام

---

(١) السابق، ص ٥٤ و٥٨.

(٢) راجع ما سبق في فصل (التيسير على الناس).



obeikandi.com

أو صدقة أو نسك . ولم يقل النص القرآني كم يكون الصيام؟ فبيَّن النبي لكعب أن الصيام ثلاثة أيام ، فكانت السنة بيانًا للقرآن لا يستغني المسلم عنه وإلا لم يعرف ما الصيام المطلوب منه .

ثم لم يذكر النص القرآني في الصدقة ماهي ؟ فبين النبي ﷺ لكعب بن عجرة أنها ثلاثة آصع من تمر ، تقسم بين ستة مساكين : فيكون لكل مسكين نصف صاع[1] وبغير هذا البيان النبوي لم تكن الصدقة لتعرف ، ولم يكن إخراجها في الفداء ممكنًا إلا باختلاف كبير لا يتضح به صحيح الحكم القرآني.

---

(١) الصاع مكيال لأهل المدينة لهم في تقديره اختلاف كثير، انظر مادة «صوع» في النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ط دار المعرفة، بيروت ٢٠٠١ بتحقيق خليل مأمون شيحا، ج٢، رقم ٢١٩٦؛ وابن قتيبة، غريب الحديث، ط بغداد ١٩٧٧ بتحقيق الدكتور عبد الله الجبوري، جـ١ ص١٦٢. وفي بعض روايات حديث كعب بن عجرة أن النبي ﷺ أمره بإطعام فَرَق بين ستة مساكين، وفي بعضها أنه أمره بإطعام ستة مساكين مُدَّين مُدَّين لكلِّ مسكين. والفرق مكيال لأهل المدينة مختلف في سعته، أيضًا، كالصاع. والمُدُّ رطل وثُلثٌ عند أهل الحجاز (غريب الحديث ص ١٦٣) أو رطلان عند أهل العراق (النهاية: مادة «مدد» جـ٢ رقم ٣٥٠٨). والروايات التي فيها ذكر (الفَرَق) عند الطبري، السابق، ص ٦٠ و٦٣ و٦٤. والروايات التي فيها ذكر (المدّين) في ص ٦٥ و٦٨.

وفي النص القرآني الأمر بالنُسُك ، خصلةً ثالثة من خصال الفداء . والنُسُك جمع نسيكة ، وهي الذبيحةُ[1] مطلقًا من شاة فما فوقها. لكن رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة: « إن شئت فانسك نسيكة » ، وفي روايات صحيحة للحديث : « اذبح شاة »[2] ففسرت السنة لفظ « النسك » القرآني بالشاة لا بغيرها من الذبائح. وهو تفسير لم يكن لأحد ، لولا السنة ، القول به .

ولذلك قال الإمام الطبري ، بعد ذكر أقوال بعض العلماء في مسألة الفدية : « والصواب من القول في ذلك عندنا ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ ، وتظاهرت به الرواية : أنه أمر كعب بن عجرة بحلق رأسه من الأذى الذي كان برأسه، ويفتدي إن شاء بنسك شاة ، أو صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام فَرَق من طعام بين ستة مساكين كل مسكين نصف صاع. وللمفتدي الخيار بين أي ذلك شاء لأن الله لم يحصره في

---

(١) النهاية في غريب الحديث، مادة « نسك »، جـ٢ رقم ٣٧٩١؛ واللسان، مادة: « نسك » ؛ والأصنهاني ، مفردات ألفاظ القرآن، بتحقيق صفوان داوودي ، دار القلم ، دمشق ط٣ ٢٠٠٢ مادة « نسك ».

(٢) قال ابن حزم: « وهذا أكمل الأحاديث وأبينها »، المحلى، جـ ٧ المسألة رقم ٨٧٤ ص ٢٠٨.

واحدة منهن بعينها ، فلا يجوز له أن يعدُوها إلى غيرها ، بل جعل إليه فعل أي الثلاث شاء»[١].

فكيف يجوز لأحد ، مؤمن بالإسلام والقرآن ونبوة محمد ﷺ ، أن ينكر الدور الذي تقوم به السنة في التشريع ؟ ؟

* * *

ويقول القرآن الكريم في سورة النساء :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(النساء:١٠٢)

---

(١) الطبري، السابق ، ص٧٦.



obeikandi.com

كان نزول هذه الآية بعد أن صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين صلاة الظهر بالحديبية [١].

وصلاة الخوف التي ذكرها القرآن الكريم أداها الرسول ﷺ أربعًا وعشرين مرة، على ستة أوجه أو سبعة أوجه، رويت كلها من طرق صحيحة ثابتة، كما قال الإمام أحمد بن حنبل، وغيره [٢].

---

(١) في كثير من الروايات، في البخاري والطبري وغيرهما، أن ذلك كان بعُسْفان، وهو صحيح، ولا ينافي أن نزول الآية كان بالحديبية، فإن عُسْفان على الطريق من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة، وهي أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، بينها وبين مكة مرحلتان، أو ستة وثلاثون ميلاً. (ياقوت، معجم البلدان، جـ ٤ رقم ٨٣٩٥ من ط دار الكتب العلمية، بيروت د.ت).

وقد يبدو أن في نزول حكم صلاة الخوف في الحديبية إشكالاً يثيره ما رواه البخاري والطبري، وغيرهما من أن النبي ﷺ صلى بالمسلمين صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع، المختلف في وقتها بين السنة الرابعة والسنة الخامسة للهجرة، والحديبية كانت في السنة السادسة بغير خلاف.

ولكن هذا الإشكال يزول بما حققه الحافظ ابن حجر، في فتح الباري من أن ذات الرقاع كانت بعد الحديبية وبعد خيبر. وقد استدل لذلك بأدلة من أهمها ما نقله عن الواقدي من حديث خالد بن الوليد أنه قال: «لما خرج النبي ﷺ إلى الحديبية لقيته بعسفان فوقفت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر، فهممنا أن نُغير عليهم فلم يُعْزَم لنا، فأطْلَعَ الله نبيه على ذلك فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف.» وبين الحافظ ابن حجر أن قصة نزول جبريل بآية صلاة الخوف قصة واحدة هي التي كانت في الحديبية، وأن روايات صلاة الخوف الأخرى كانت بعد ذلك. راجع فتح الباري، جـ٧ ص ٤٢٢-٤٢٤.

(٢) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ط دار الكتب المصرية، جـ ٥ ص ٣٦٥؛ وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ط المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٨٤هـ = ١٩٦٥م، جـ٢ ص ١٨٦؛ والمغني لابن قدامة، ط دار هجر بالقاهرة، بتحقيق عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، جـ٣ ص ٣١١.

فالسُّنةُ هنا مبينة للقرآن ، كما بينت تفصيل ما جاء به من حكم الفدية للحالق رأسه وهو محرم . وهذا دليل ثانٍ على أنه يستحيل الاستغناء بالقرآن وحده في معرفة أحكام الشرع ؛ بل لابد من الوقوف على ما وردت به السنة التي هي بيانه ، بأمر الله لنبيه ﷺ : ﴿ .... **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (النحل:٤٤) .

وقد نص الإمام الطبري على بيان السنة لصلاة الخوف على وجوه متعددة ، فقال : «غير أن الأمر وإن كان كذلك [أي من تعدد كيفيات أداء صلاة الخوف في فعل النبي ﷺ] فإنا نرى أن من صلاها من الأئمة فوافقت صلاته بعض الوجوه التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ أنه صلاها ، فصلاته مجزئة عنه تامة ، لصحة الأخبار بكل ذلك عن رسول الله ﷺ ، وأنه من الأمور التي علَّم رسول الله ﷺ أمته ، ثم أباح لهم العمل بأي ذلك شاؤوا»(١) .

* * *

**ثم نزلت سورة الفتح ، على رسول الله ﷺ ، في طريق عودته من الحديبية إلى المدينة المنورة.**

---

(١) تفسير الطبري، السابق، ص ١٦١.

وهذه السورة كلها في شأن الحديبية ، وما سبقها وما جاء بعدها ، لا يخالف في هذا أحد من أهل العلم بالتفسير بأسباب النزول.[1]

وهي مدنية لأن القرآن المدني في المشهور من مصطلح أهل العلم بالقرآن هو ما نزل بعد الهجرة ولو كان نزوله في مكان غير المدينة المنورة[2].

وقد أوجز الشيخ محمد الطاهر بن عاشور أغراض هذه السورة فيما يأتي :

١- بشارة المؤمنين بحسن عاقبة صلح الحديبية ، وأنه نصر وفتح ، فنزلت به السكينة في قلوب المسلمين وأزال حزنهم من صدهم عن الاعتمار بالبيت .

٢- إخبار المسلمين بأن العاقبة لهم وأن دائرة السوء على المشركين والمنافقين .

٣- التنويه بكرامة النبي ﷺ عند ربه ، ووعده بنصر بعد نصر .

---

(١) أبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم، ط جامعة أم القرى بمكة المكرمة، بتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ١٩٨٩ جـ٦ ص ٤٩١؛ القرطبي، المرجع السابق، جـ١٦ ص ٢٥٩.

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، في مطلع تفسيره لسورة الفتح؛ والقرطبي، السابق، جـ١٦ ص ٢٥٩.



obeikandi.com

٤- الثناء على المؤمنين الذين عزروه وبايعوه ، وأن الله ضرب لهم مثلاً في التوراة والإنجيل.

٥- ذكر بيعة الحديبية [بيعة الرضوان] والتنويه بشأن من حضرها.

٦- فضح الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب ووصفهم بالجبن ، والطمع ، وسوء الظن بالله ، والكذب على رسول الله ﷺ .

٧- منع أولئك المتخلفين عن رسول الله ﷺ من المشاركة في غزوة خيبر ، التي كانت بعد الحديبية مباشرة .

٨- إخبار من تخلفوا عن رسول الله ﷺ أنهم سيدعون إلى جهاد آخر فإن استجابوا غفر الله لهم تخلفهم عن الحديبية.

٩- وعد النبي ﷺ بفتح آخر ، بعد الفتح المذكور في السورة ، وبفتح مكة.[١]

ولا يحيط بشأن الحديبية ، وما كان فيها من نعم الله ، العامة والخاصة ، على رسول الله ﷺ ومن كان معه من المسلمين إلا من أحاط بسورة الفتح وتفسيرها ، وأدرك معانيها ، كما شرحها أهل التفسير ، وكما رواها المحدثون.

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق .

وهذا البحث يخرج عن غرض هذا الكتاب. لذلك اكتفيت بإشارة موجزة لبعض المعاني التي تضمنتها السورة الكريمة[1] محيلاً من أراد الاستزادة ـ بل ناصحًا كل قارئ بذلك ـ إلى

---

(١) اقتصرت على كتب: تفسير الطبري، ورجعت في شأن سورة الفتح إلى طبعة المطبعة الأميرية ببولاق (١٣٢٩هـ) لأن طبعة الشيخ أحمد وأخيه الأستاذ محمود شاكر لم تصل إليها. وتفسير السورة في طبعة المطبعة الأميرية يقع في الجزء السادس والعشرين من صفحة ٤٢ إلى صفحة ٧٣؛ وتفسير القرطبي، وسورة الفتح في جزئه السادس عشر من صفحة ٢٥٩ إلى صفحة ٢٩٩؛ وتفسير أبو جعفر النحاس، وسورة الفتح فيه في الجزء السادس من صفحة ٤٩١ إلى نهاية الجزء، وهو آخر ما عثر عليه من كتابه؛ وتفسير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي المسمى: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة الراجحي، الصادرة عن دار عالم الفوائد بمكة المكرمة بإشراف الشيخ بكر عبد الله أبو زيد، وسورة الفتح في المجلد السابع منه، من صفحة ٦٣٩ إلى صفحة ٦٤٦؛ وتفسير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، والطبعة التي تحت يدي وأنا أكتب هذا الفصل طبعة إلكترونية، على الشبكة الدولية للمعلومات والاتصالات، على موقع باسم: «تفسير» صفحاتها مرقمة ترقيمًا متواليًا، وسورة الفتح فيها تبدأ من صفحة ٤٠٤٥ وتنتهي في صفحة ٤٠٨٦؛ وتفسير سيد قطب، رحمه الله، في ظلال القرآن، ط دار المعرفة في بيروت ١٩٧١ (وهي مصورة عن طبعة دار التراث العربي) وتفسير سورة الفتح فيه يقع في الجزء السادس والعشرين من صفحة ٤٧٥ إلى صفحة ٥١٦. فالإشارة إلى أي من هذه التفاسير إشارة إلى موضع سورة الفتح منه. وقد أشير، أحيانًا، إلى تفسير ابن الجوزي المسمّى زاد المسير في علم التفسير، طبعة المكتب الإسلامي في مجلد واحد، وسورة الفتح فيه من صفحة ١٣١٦ إلى صفحة ١٣٢٧؛ أو إلى تفسير ابن كثير، ط دار الشعب المحققة، وسورة الفتح في الجزء السابع صفحة ٣٠٧ إلى صفحة ٣٤٤.

obeikandl.com

كتب التفسير المعتمدة ، وكتب الحديث الصحيح ليقف على التفصيل الكامل لمعاني هذه السورة القرآنية الجامعة لأمر الحديبية ، المبينة كيف علّم القرآن الكريم أصحاب محمد ﷺ دروسًا خالدة بانية للأفراد والأمم على السواء ، وأثرها باقٍ على مر الزمان لا يبلى ولا يفسد ، بل يفيد منه كل من يتدبر آيات سورة الفتح ويعمل فيها نظره ويدركها بعين البصيرة الواعية .

أول ما ينبغي الوقوف عنده في هذه السورة هو مطلعها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾(الفتح:١) وهذا الفتح عند الجمهور هو صلح الحديبية ، لأنه فتح عظيم .[١]

وقد روى الطبري بسنده عن الشعبي أنه قال : « نزلت إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا بالحديبية ، وأصاب في تلك الغزوة ما لم يصبه في غزوةٍ ؛ أصاب أن بويع بيعة الرضوان ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على الفرس ؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس ، وأطعموا نخل خيبر فقد قسمت خيبر على أهل الحديبية لم يدخل معهم فيها أحد » [٢].

---

(١) الشنقيطي، ص ٦٠٣؛ وزاد المسير، ص ١٣١٦؛ وابن كثير، ص ٣٠٧؛ وسيد قطب، ص ٤٩١.

(٢) الطبري، ص ٤٥؛ والقرطبي، ص ٢٦٠.

وأشارت السورة الكريمة إلى الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ممن ذكرنا قولهم عن الرسول وأصحابه ، وهم في طريقهم إلى الحديبية : «لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبدًا»[(١)] . وقالوا لرسول الله ﷺ إن لديهم ما يشغلهم عن الخروج معه إلى العمرة . فقالت سورة الفتح بعد أن بشرت المؤمنين بالجنة ، وبتكفير سيئاتهم ، وبأن هذا عند الله فوز عظيم ، قالت عن المنافقين : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (الفتح:٦) .

قال أهل التفسير إن عذاب المنافقين المذكور في هذه الآية هو ما يصيبهم من الحزن ، وخيبة الأمل ، وفقد الرجاء فيما كانوا يحسبونه واقعًا لرسول الله ﷺ وأصحابه لما رأوهم عليه من الضعف والوهن ، ولما ظنوه من تولي أصحاب النبي ﷺ عنه إذا احتاج إلى نصرتهم وقتالهم معه . وقرنت الآية بين المشركين والمنافقين لاشتراكهم في ظن السوء بالله تبارك وتعالى ، وتمني الهلاك لمحمد وأصحابه .[(٢)]

---

(١) انظر فصل (شوق ورؤيا صادقة) .

(٢) الطبري، ص ٤٦ ؛ والقرطبي ، ص ٢٦٥ ؛ وابن كثير، ص ٣١١.

وقال الشيخ الشنقيطي إن الله بيَّن في هذه الآية الكريمة أنه يجازي المشركين والمشركات والمنافقين والمنافقات بثلاث عقوبات: هي غضبه، ولعنته، ونار جهنم. وقد بيَّن القرآن في آيات أخرى نتائج هذه العقوبات: فقال في الغضب: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ (طه:٨١)، وقال في اللعنة: ﴿ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾ (النساء:٥٢) وقال في نار جهنم: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾ (آل عمران:١٩٢)[1].

وعقَّب القرآن الكريم على هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٧) وكان ذلك ردًّا على رأس المنافقين عبد الله بن أبي - الذي لم يكفه ما كان منه عند نزول المطر، وعند جيشان البئر بالماء -[2] فأضاف آية جديدة لنفاقه، عندما جرى الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش، إذ قال: «أيظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو؟ فأين فارس والروم!» فرد عليه القرآن بقول تعالى ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح:٧). وهذه الجملة تكررت في الآية الرابعة

---

(١) الشنقيطي، ص ٦٤٢.

(٢) راجع فصلي: (كبر كاذب) و(المؤمنون بالكواكب).

من السورة نفسها تعقيبًا على كلام المشركين من قريش خاصةً ، وجاءت هنا عقيب ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمراد في الموضعين التخويف والتهديد. فإن الله تبارك وتعالى لو أراد إهلاك المشركين والمنافقين لم يعجزه ذلك ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .(١)

ثم بينت السورة فضل الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ١٠) .

وهذه البيعة هي التي ذكرنا من قبل أنها كانت على عدم الفرار ، أو على الموت ، وجعل الله تبارك وتعالى البيعة له ـ سبحانه ـ تشريفًا لنبيه ﷺ (٢) ؛ وإشارة إلى أن قوة الله تبارك وتعالى فوق قوة المبايعين ، وقدرته على نصرة نبيه على عدوه فوق قدرتهم ، وأن من يرجع في هذه البيعة فإنما يصيب بالضرر نفسَه لأنه يحرمها من الأجر العظيم الذي وعد الله به الموفين ببيعته ، وقد فُسِّرَ هذا الأجر بأنه الجنة .(٣)

---

(١) القرطبي، ص ٢٦٥-٢٦٦، وفيه الكلام المنسوب إلى عبد الله بن أبي.
(٢) ابن كثير، ص ٣١٢.
(٣) الطبري، ص ٤٧ ؛ والقرطبي، ص ٢٦٧.



obeikandi.com

ويفضح القرآن الكريم حقيقة ما في نفوس المخلَّفين من الأعراب بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (الفتح:١١-١٢) . ويحذرهم عاقبة الاستمرار في ظنهم السيء بالله ورسوله وأنه قد يؤدي بهم إلى الكفر فيقول تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ (الفتح:١٣). ثم يحثهم على التوبة مما فعلوا بقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفتح:١٤) .[١]

وبعض الذين تخلفوا عن رسول الله ، في الحديبية وفي غيرها من المشاهد ، كان تخلفهم لأعذار تحول بينهم وبين الخروج ؛ فنفى الله تبارك وتعالى الحرج عنهم ، ليخرجهم من زمرة العاصين لرسول الله ﷺ ، ويؤكد أنهم على أصل

(١) القرطبي ، ص٩٤٤ ؛ وابن كثير، ص ٣١٩؛ وسيد قطب ، ص ٥٠١ .



obeikandi.com

الطاعة وإن حالت أسباب قاهرة بينهم وبين الخروج مع رسول الله ﷺ . قال تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:١٧) .[1]

ولا ريب أن في هذا العذر تطييبًا لقلوب المذكورين في الآية . وهذه الآية من سورة الفتح نظيرها قول الله تعالى في سورة التوبة ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾[2] (التوبة:٩١-٩٢).

ثم تأتي المجموعة الأخيرة من آيات سورة الفتح متضمنة أن الله رضي عن المبايعين تحت الشجرة ، وأنه يعدهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة ، وأنه هو الذي كفَّ أيدي

---

(١) الطبري، ص ٥٣؛ والقرطبي ، ص٢٧٣.

(٢) القرطبي، جـ ٨ ص ٢٢٥؛ وآيات سورة التوبة من الآية (٨٥) إلى الآية (١٠٢) تورد أحكام الخروج مع رسول الله والتخلف عنه بتفصيل فراجع تفسيرها في القرطبي جـ ٨ ص ٢٢٣-٢٤٤.

الناس عنهم ، أي المشركين بمكة ، وأنهم لو قاتلوهم ـ على الرغم من أن المسلمين لم يكن معهم سلاح قتال ـ لولى المشركون الأدبار ولم يجدوا وليًا ولا نصيراً .

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (الفتح:١٨-٢٢) .

يقول الأستاذ سيد قطب : « أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر. وقد يكون هذا. ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصًا في خيبر ...... ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية.. إذ كانت في المحرم من سنة سبع. بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية. وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقى لليهود في الجزيرة من مراكز قوية

obeikandi.com

غنية. وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل .

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد. ولم أجد في هذا نصًّا . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً. فقد جعلها رسول الله ﷺ في أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحد غيرهم...... والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب ، بالتوجيهات القرآنية ، والابتلاءات الواقعية . وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين ، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم»[١].

وتشير الآيات بعد ذلك إلى ما كان من انتصار المسلمين على من حاول النيل منهم من المشركين ، في الحديبية ، بأسرهم مجموعة بعد مجموعة منهم ، وإطلاق رسول الله ﷺ إياهم ؛[٢] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الفتح:٢٤) .

---

(١) سيد قطب ، ص ٥٠١ و٥٠٢.

(٢) القرطبي، ص ٢٨٠؛ والطبري، ص ٥٨ ؛ وانظر فصل (غدر ونصر وعفو)

وتبيَّنُ للمؤمنين أن الله تبارك وتعالى منعهم من دخول مكة بسبب من فيها من المؤمنين والمؤمنات الذين لم يكونوا معروفين لا بأعيانهم ولا بأماكنهم ، فلم يكن بعيداً أن يقتل المسلمون منهم ، أو يصيبوا من أموالهم ، فيكون ذلك عاراً على أصحاب النبي ﷺ [1]. وهذا المنع من القتال كان رحمة من الله تبارك وتعالى بأصحاب محمد وبالمؤمنين الذين كانوا متفرقين في أهل مكة . ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٥) . فأما أصحاب محمد فلئلا يصيبهم العيب بأن يقول المشركون قتلوا أهل دينهم ، وأما المؤمنون المستضعفون في مكة فلئلا يصيبهم الأذى من القتل وغيره بغير ذنب. ومن جميل كلام المفسرين في هذا الموضع أن هذه الآية (الآية ٢٥ من سورة الفتح) دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمنين عندما لا يكون الوصول إلى الكافر ممكناً

---

(١) الطبري، ص ٦٥ ؛ والقرطبي ، ص٢٨٥.

إلا بأذى يصيب المؤمن. وذلك قول الله تعالى : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٥) ومعنى تزيلوا: تميزوا ، أو تفرقوا ، فأصبح موضع كل من المؤمنين والكافرين معروفًا ظاهرًا ، لو حدث هذا لأباح الله لنبيه قتال المشركين. قال أهل التفسير : «ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار»[1].

---

(١) القرطبي ، ص ٢٦٨؛ وما بين القوسين نقله القرطبي عن الضحاك. وتجب ملاحظة قول القرطبي ــ وهو قول المالكية ــ في جواز قتل من يتخذهم الكفار من المسلمين حائلاً بينهم وبين جيش المسلمين، وهو ما يسميه الفقهاء (الترس). قال القرطبي: «قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كليَّة قطعية. فمعنى كونها ضرورية : أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة، حتى يحصل من قتل الترس مصلحة لكل المسلمين؛ فإن لم يفعل قتل الكفار الترس واستولوا على كل الأمة . ومعنى كونها قطعية: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعًا . قال علماؤنا : وهذه المصلحة بهذه القيود «لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأن الفرض أن الترس مقتول قطعًا؛ فإما بأيدي العدوّ فتحصل المفسدة العظيمة التي هي استيلاء العدوّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين فيهلك العدو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يقتل الترس في هذه الصورة بوجه؛ لأنه يلزم منه ذهاب الترس والإسلام والمسلمين، لكن لما كانت هذه المصلحة غير خالية من المفسدة، نفرت منها نفس من لم يمعن النظر فيها؛ فإن تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدم أو كالعدم. والله أعلم» (ص ٢٨٧-٢٨٨) .



obeikandi.com

وتقابل الآيات بين صنيع الكافرين الذين حركتهم حمية الجاهلية فأبوا الإقرار لرسول الله بالرسالة ، واستفتاح كتاب الصلح باسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعوا النبي ﷺ ومن معه من دخول مكة؛ تقابل بين هذا السلوك الجاهلي وبين فضل الله على المؤمنين إذ أنزل سكينته على رسوله وعليهم؛ فكان من أثر هذه السكينة صبر المؤمنين وطمأنينتهم ووقارهم ، وبقاؤهم على كلمة التقوى وهي كلمة التوحيد التي أبى المشركون من أهل مكة أن يجيبوا إليها[1]. والسكينة تشمل الطمأنينة ، والسكون إلى الحق ، والثبات ، والشجاعة عند البأس.[2] ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح:٢٦) .

---

(١) الطبري، ص ٦٥ ؛ والقرطبي ، ص ٢٨٨ .

(٢) الشنقيطي، ص ٦٤٤ ؛ وقد ذكر معنى جميلا عندما أشار إلى ذكر القرآن الكريم السكينة وإنزالها على الرسول وعلى المؤمنين في سورة التوبة دون أن يبين موضع إنزالها، وأن الآية الرابعة في سورة الفتح حددت موضع إنزال السكينة، وهو القلب، في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:٤) .

ثم تؤكد الآيات الخاتمة لسورة الفتح صدق وعد الله لرسوله بدخول المسجد الحرام ، وأن هذا الدخول يسبقه فتح قريب : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح:٢٧) .

ثم تثني على النبي ﷺ ، وتعد بظهور دينه على الدين كله ، وتذكر مَثَلَ المؤمنين في التوراة والإنجيل :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:٢٨-٢٩) .



obeikandl.com

فأما التوراة ففيها مثل المؤمنين يوم القيامة وما يبدو في وجوههم من أثر صلاحهم في الدنيا ، وهو نظير قوله تعالى ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المطففين:٢٤) وقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢)[١]. وروي عن ابن عباس ومجاهد أن ما أشارت إليه الآية الكريمة من مثل المؤمنين في التوراة هو السمت الحسن ، وهو الخشوع والتواضع ، ورُوِيَ عن ابن جريج أنه الوقار والبهاء[٢] ؛ وهذه كلها أقوال متقاربة .

وأما الإنجيل فقد ضرب القرآن فيه مثل « النبي وأصحابه بأنهم كالزرع يظهر في أول نباته رقيقًا ضعيفًا متفرقًا ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلظ ويتكامل ، حتى يقوى ويشتد وتعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها »[٣]. هذا المثل موضَّحٌ في مواضع أخرى من كتاب الله تعالى كقوله:﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم

---

(١) الطبري، ص٧٠ ؛ والقرطبي ، ص ٢٩٢.

(٢) القرطبي ، ص ٢٩٣ ؛ والطبري ، ص ٧٠-٧١.

(٣) الشنقيطي ، ص ٦٤٥.

بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٦)
وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٣) .

وهذه الآية ـ أعني آية سورة الفتح ـ دليل على وجوب حب أصحاب رسول الله ﷺ وعدم جواز انتقاصهم. نقل القرطبي عن أبي عروة الزبيري ، من ولد الزبير بن العوام ، أنه قال : « كنا عند مالك بن أنس فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك هذه الآية : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ (الفتح:٢٩) حتى بلغ ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ (الفتح:٢٩) فقال مالك من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ».

وعلق القرطبي على ذلك بقوله: « لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله فمن نقص واحدًا منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين .... قال الله تعالى ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب:٢٣) . وقال ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:٨-٩). وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم. وقال رسول الله ﷺ «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم»[١]. وقال: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[٢] .... والأحاديث بهذا المعنى كثيرةٌ فحذارِ من الوقوع في أحدٍ منهم ...... وقد لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه؛ فالمكذب لأصغرهم ـ ولا صغير فيهم - داخل في لعنة الله التي شهد بها رسول الله ﷺ وألزمها كل من سب واحدًا من الصحابة أو طعن عليه..... فالصحابة كلهم

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر، البخاري رقم ٢٦٥٢؛ وفي مسلم برقم ٢٥٣٣.

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، برقم ٣٦٧٣؛ أي إن صدقة الواحد من الصحابة بالقدر القليل المذكور في الحديث يزيد ثوابها وأجرها عن صدقة من بعدهم بمقدار جبل أحد من الذهب.

عدول ، أولياء الله تعالى وأصفياؤه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة ، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة»[1] .

**اللهم ارزقنا حبك وحب نبيك**

**وحب أصحاب نبيك واجعلنا**

**ممن يلقاه يوم القيامة على ذلك ،**

**والحمد لله رب العالمين .**

* * *

(١) القرطبي باختصار ، ص ٢٩٦-٢٩٩ .



obeikandl.com